

ابن الأبار الساعى

يذكر من يترجمون ابن الأبار ، قبل كنيته ، عددا من الصفات التى يعرف بها وتشير الى مكانته العلمية والادبية . فيقول مؤلف أزهار الرياض (1) : « هو الفقيه الاجل ، الكاتب الحافل ، الراوية المحدث ، الفاضل الناقد البارع ، الحافظ الكامل ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى البلمسى المعروف بابن الأبار » . ويصفه ابن خلدون (2) بأنه « كان علامة فى الحديث ولسان العرب ، وبليغا فى الترسيل والشعر . . . » . ويصفه محمد بن شاكر الكتبى (3) بأنه « كان عالما بالتاريخ ،

(1) صفحة 204 من الجزء الثالث .

(2) كتاب ديوان العبر . . . الخ

(3) فوات الوفيات ، صفحة 126 من الجزء الثانى .

اماما في العربية ، فقيها مفتيا ، اخباريا فصيحاً ، له يد في البلاغة
والانشاء

وفي دائرة المعارف الاسلامية يكتفى مؤلف ترجمته بانه
مؤرخ عربى . ويصفه الاستاذ ليفى بروفنصال بانه أديب (1)
أندلسى مشهور ، وكاتب تراجم .

ويذكره الاستاذ نيكل (2) Nykl في كتابه « الشعر العربى
الاندلسى » ويقول عنه : « انه كان مؤرخا اكثر منه اى شخص
آخر »

ولا نجد فيما كتب بالعربية عن « الادب العربى بالاندلس »
ذكراً لابن الابرار على انه شاعر شهير . ولكن هذا كله لا ينفى
ان ابن الابرار شاعر من طراز لم يتخذ الشعر مهنته ، ولا برز
فيه . وهو شاعر لانه قرض الشعر وحاوله ، واجاد بعض
محاولاته ، وبقيت بعض قصائده خالدة مؤثرة .

ونحن لانريد ان نعرمه صفة الشاعرية ، ولا نستطيع ذلك

(1) صفحة 41 هامش رقم 1 من كتاب : La Peninsule Ibérique Au

Moyen , Age , D , après kitab ARRawd Al - Mitâr .

(2) صفحة 382 من كتاب : Hispano - Arabie poetry

ولو أردناه . وقد ذكرت في باب « ابن البار الكاتب » انه
اتخذ الشعر هواية له وام يتكسب به ، وهو لهذا كاتب ومؤرخ
ونائر قبل ان يكون شاعرا ولعله من الخير ان يبرز في النواحي
التي مال اليها بطبيعته ، وأعدته لها فطرته وظروفه ، دون ان
يقحم نفسه اقحاماً في ميدان الشعر ، فيحاول ان ينافس الشعراء
من الطبقة الاولى أو الثانية . انه لم يفعل ذلك ولكنه قد عرض
الشعر حين أحس بالميل الى قرصه ، وحين دفعه اليه شيطانه او ملاكه .
وام يكن ابن البار بدعا في محاولاته الشعر بالرغم من
نبوغه في كتابة الرسائل وفي التأليف . فقد كانت نظم الشعر
نوعاً من التعبير ⁽¹⁾ اللغوي الموزون المقفى ، جائز المحاولة لكل

(1) النظرية النفسية الحديثة هي ان كل انسان عادي يستطيع ان
يعبر عن احساسه وافكاره بعبارة شعرية موزونة مقفاة او غير مقفاة ، وغير
موزونة . فالعبارة اذاً بالخيال الجميل الذي يعرض الفكرة في صورة من
اللفظ او الاسلوب مغرية مطربة . ولقد يعبر المرء عن فكرته الجميلة في
عبارة منشورة تفوق الشعر ، وعلى قدر الخيال المبدع والقدرة على الوصف ،
والتعبير اللغوي يكون جمال الشعر . واذاً فلكل انسان قدرة شعرية ، ولكنها
تختلف من فرد لفرد ، ومن ثم كان الاختلاف في الانتاج ، فكل فرد يستطيع
ان يغنى وليس كل فرد مغنياً ، وكل فرد يستطيع ان يصور ، وليس كل
فرد مصوراً ، وبكثرة المرات والمحاولة ينطلق وينمو عند الفرد ما لديه من =

كاتب أو أديب دون حاجة الى النبوغ فيه. وقد قل ان نجد من كتاب العربية او علمائها (1) وفقهاؤها وأمرائها من لم يعان فرض الشعر، ومن لم يرم فيه بسهم. وقد كانت العادة ان يمزج الكتاب المنشور من كلامه بالمنظوم، حتى لقد صادت بعض الرسائل - كالمقامات (2) - خليطا من النثر والنظم، وصار اسلوب النثر شبيها بالنظم.

فلا عجب بعد هذا أن نصف ابن الأبار بأنه شاعر، وان نتعرض هذا لدراسة ما وصلنا من شعره، ونقده وتقديره. وامل القصيدة الخالدة التي سيظل اسمه مقرونا بها مشهورا، هي تلك

= مواهب طبيعية . (انظر خطاب : Education of poetic esprit . by Marjorie Hourd

(1) انظر الاغانى والعقد الفريد ونهاية الارب، والكامل، والحلة السيرا، والغصون اليانعة وأمثالها من كتب الادب المملأ بالروايات الشعرية واسماء من قرضوا الشعر من الادباء غير المخلدين.

(2) اعنى مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري والسيوطي، وما كتب بالاندلس والمغرب من مقامات مثل : خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف وهي وصف لرحلة الامير ابي الحجاج في غرناطة (صفحة 14 Beiträge Müller) ، ومقامات ابي حفص عمر بن الشهيد (راجع صفحة 34 من بلاغة العرب في الاندلس ، الهامش رقم 2)

التي خاطب بها الامير ابا زكريا سلطان تونس ، حينما ذهب
ليستنجده لحماية بالنسية . وهي قصيدة معروفة نذكرها هنا
بنصها لقيمتها الادبية قال :

ادرك بخيلك خيل الله انداسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت
وحاش مما تعانيه حشاشتها
يا الجزيرة أضحي أهلها جزراً
في كل شارقة المام باثقة
وكل غاربة اخجال (1) شائبة
تقاسم الروم لا زالت مقاسمهم
وفي بالنسية منها وقرطبة
مدائن حلها الاشراك مبتسما
وصيرتها العوادي العاثات (2) بها
فمن دساكر كانت دونها حرما
يا للمساجد عادت المعدا بيعا
لهفى عليها الى استرجاع فائتها
وأربعاً غنمت أيدي الر بيع لها
كانت حداثق للاحداق موقفة
وحال ما حولها من منظر عجب

ان السبيل الى منجاتها درسا
فلم يزل منك عز النصر ملتصا
فظالما ذقت البلوى صباح مسا
للحادثات ، وأضحى جدها تصا
يعود مأتمها عند العدا عرسا
تثنى الامان حذاراً والسرور أسمى
ولا عقائلها المحجوبة الانسا
ما ينصف النفس او ما ينزف النفسا
جذلان ، وارتحل الايمان مبتثما
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
ومن كنائس كانت قبلها كنسا
والنداء غدا أثناءها جرسا
مدارسا للمثاني أصبحت درسا
ما شئت من خلع موشية وكسا
فصوح النصر من أدواحها وعسا
يستجلس الركب او يتركب الجلسا

(1) وفي رواية : اجحاف نائبة (2) وفي رواية ، الحادثات .

سر عاذما عاث جيف للكفر واحربا
وابتنز بززتها مما تعينها
فأين عيى جنيها بها خضرا
معا محاسنها طاغ اتيج لها
ورج ارجاءها لما أحاط بها
خلا له الجو فامتدت يده الى
وأكثر الزعم بالتثليث منسرداً
صل جيلها، أيها المولى الرحيم، فما
وأحى ما طمست منها العداة كما
أيام صرت لنصر الحق مستبقا
وقمت فيها بأمر الله منتصرا
تمحو الذى كشف التجسيم من ظلم
وتقتضى الملك الجبار مهجته
هذى رسائلها تدعوك من كذب
وافتك جارية بالنجح راجية
خاضت خفارة⁽³⁾ عليها ويغفها
وربما سبحت ، والريح عاتبة ،
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى

عيث⁽¹⁾ الدبا فى مغانيها التى كبسا
تعيف الاسد الضارى لما افترسا
وأين عصر جليناه بها سلسا
ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا
فغادر الشم من اعلامها خنسا
ادراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
أبقى المراس لها جبلا ولا مرسا
احييت من دعوة المهدي ما طمسا
وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
كالعالم اهتز او كالعارض انبجسا
والصبح ماحية انواره الغلسا
يوم الوغى، جهرة لا تقبل الخلسا
وأنت أفضل مرجو لمن يسا
منك الامير الرضا، والسيد الندسا⁽²⁾
عبابه ، فتعانى اللين والشرسا
كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
حفص مقبلة من تربه القدس

(1) العيث الفساد والتدمير .

(2) الندس : الفطن الكيس .

(3) يعنى خاضت هذه السفن اليك البحر الشامى المتوسط .

ملك تقلدت الاملاك طاعته
من كل غاد على يمهاده ملتثما
مؤيد لو رمى نجما لاثبتته
تالله ان الذي تزجي السعود له
امارة يحمل المقدار رايتها
يبدى النهار بها من ضوئه شنبها
ماضى العزيمة والايام قد نكملت
كأنه البدر والعلواء هالته
قد بيره ومسح الدنيا وما وسعت
قامت على العدل والاحسان دولته
مبارك اهديه ، بباد سكينته
قد نور الله بالتقوى بصيرته
برى العماة وراش الطائعين فقل
ولم يغادر على سهل ولا جبيل
فرب أصيد لا تلقى به صيدا
الى الملائك ينمى والملوك معاً
من ساطع النور صاغ الله جوهره
له الثرى والثريا خطتان ، فلا
حسب الذى باع فى الاخطار ركبها

دنيا ودينا ، فغشاها الرضا لبسا
وكل صاد الى نعماء ملتثما
ولو دعا أفقا لبنى وما احتبسما
ما جال فى خلد يوما ولا هجسا
ودواة عزها يستصحب القمص⁽¹⁾
ويطلع الليل من ظلماتها لعبا
طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا
تحف من حوله شهب القناحر ما
وعرف معروفه واسى الورى وأسا
وانشرت من وجود الجود مارسا
ما قام الا الى حسنى وما جلسا
فما يبالى طروق الغطب ملتبسا
فى الليث مفترسا والغيث مرتجسا
حيا لقاحا اذا وافيته بغضا
ورب أشوس لا تلقى به شومسا
من نعمة اثمرت للمجد ما غرسا
وصان صيقله أن يقرب الدنسا
اعز من خطيه ما سما ورمسا
اليه محياه ان البيع ما وكسا

(1) العزم القوى النافذ .

ان السعيد امرؤ القى بحضرته
فقل يوطن من أرجائها حرما
بشرى لعبد الى الباب الكريم جدا
كانما يمتطى واليمن يصحبه
فاستقبل السعد وضاحا أسرته
وقبل الجود طفاحا غواربه
يايها الملك المنصور أنت لها
وقد تواترت الانبياء انك من
طهر بلادك منهم انهم نجس
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم
وانهر عبدا بأقصى شرقها شرق
هم شيعة الامر وهي الدار قد نهكت
فاملأ هنيئا لك الناييد - ساحتها
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه

عصاه ، محترما بالعدل محترما
وبات يوقد من اضوائها قبا
آماله ، ومن العذب المعين حسا
من البحار طريقا نحوه ييسا
من ضجة فاض منها النور وانعكسا
من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
علياء توسع أمداء الهدى تعسا
يحیی بقتل ملوك الصفر اندلسا
ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
حتى يطأ طيء رأسا كل من رأسا
عيونهم ادمما تهوى زكا⁽¹⁾ وخسا
داء، متى لم تباشر حسمه انتكسا
جرداً⁽²⁾ سلاهب او خطية دعسا
لعل يوم الاعادى قد اتى وعسى
وقال يوثو أسناده ابا الربيع⁽³⁾ الكلاعي لما قتل في موقعة

أنيسة يوم الخميس 2 ذى الحجة سنة 634 :

(1) الزكا الزوج والخسا الفرد .

(2) خيلا سباقا .

(3) من صفحة 586 : الجزء الثاني من نفح الطيب وصفحة 32 من كتاب
صفة جزيرة الاندلس منتخبة من الروض المعطار .

ألمأ بأشلاء الملا والمكارم تقدد بأطراف القنا والصوارم
وعوجا عليها مأزبا ومفازة مصارع خصت⁽¹⁾ بالاطلا والجماجم
نحبي وجوها في الجندان وجبهة مجاسد من نسج الظبا⁽²⁾ واللاهزام
وهي قصيدة طويلة منها :

سقى الله أشلاء بسفح أنيسة سوافح ترجبها ثقال الغمام
ومنها :

اضاعهم يوم الخميس حفاظهم وكثرهم في المأزق المتلاحم
ومنها :

سلام على الدنيا اذا لم يالح بها محيا سليمان بن موسى بن سالم
وروى ابن سعيد قال :

كانت لي مع ابن الابر مجالسات في بجاية آتق من
الشباب، وأبهج من الروض عند نزول السحاب، ومما انشدني
من شعره :

يا حبذا بحديقة دولاب سكنت الى حركاتها الالباب
غنى ولم يطرب وسقى وهوام يشرب ومذه العود والاكواب

(1) الطلا : الاعناق (5) جمع ظبة . وهي اطراف السيوف .

لو يدعى لطف الهواء والهوى ما كان في تصديقه مسرتاب
 وكأنه مما شدا مستهزى وكأنه مما بكأ نذاب
 وكأنه بنشارة ومدا فلك كواكب له أذباب
 وقد يتوقع القارىء من عبارة ابن سعيد، أنه كان له مع ابن البار
 مجالسات آنق من الشباب، وأبهج من الروض عند ثرول السحاب
 أن تكون هذه المجالس مجالس إلهو وطرب، وشرب ودعابة،
 ولكن هذا الشعر الذى أنشده ابن البار ابن سعيد يبين نوع
 هذه المجالسات، فهى من النوع الأدبي الجاف.

ومن شعره يصف الياسمين :

حديقة ياسمين لا تهيم بغيرها الحـدق
 إذا جفن الغمام بكى تبسم ثمرها اليفق
 مكأطراف الأهالة سا ل فى أنثائها الشفق
 وكتب إلى الوزير أبى عبد الله بن أبى الحسين سعيد،
 وكان فى تونس، يستدعى منه منشورا :

ألك الخير اتحفنى بخيرى روضة لانفاسه عند الهجوم هبوب
 أليس أديب الروض يجعل ليله نهاراً فيذكرو تحته ويطيّب

ويطوى مع الاصباح منشور نشره كما بان عن ربح المحب حبيب
أهم به عن نسبة أدبية ولا غرو ان يهوى الاديب اديب

وأبو عبد الله بن الحسين سعيد هذا ، هو الذى وقع بينه وبين
ابن البار من سوء التفاهم ما جعله يدس له عند سلاطين الحفصيين .
وقال عند الخسوف :

نظرت الى البدر عند الخسوف ف وقد شين منظره الازين
كما سمرت صفحة للمحبب يحجبها بوقع أدكن
ومن شعره :

من عاذرى من بابلى طرفه ولعمره ما حل يوما بابلا
اعتده خوطا لعيشى ناعما فيعود خطيباً لقتلى ذابلا
وفى سنة 622 اخضع حصن ⁽¹⁾ بيران السيد ابو يحيى
ابو بكر بن السيد ابى زيد حاكم بلنسية . فنظم ابن البار
القصيدة الاتية يهنئ الوالد بالفتح ويمدحه :

لله قلمة بيران وعزتها على الأعاصير فى ماضى الأعاصير

(1) صفحة 60 من كتاب صفة جزيرة الاندلس ، منتخب من الروض

المطار ، نشر ليفى بروفنصال .

عنك ودانت على حكم المنى فرقاً
 واذهنت وهى السماء ذروتها
 ولو أصرت على الاعراض ثانية
 مدت اليك أبا زيد بطاعتها
 واكدت فى الرضا والصفح رغبتها
 فجدت جودك بالنعى بما سألت
 واه فى الوصف يعارض الرصافى (1) فى ابياته التى اولها :
 « ومهذب الشطين تحسب أنه
 ونهر كما ذابت سبائك فضة
 اذا الشفق استولى عليه احمراره
 حكى بمجانبه انعطاف الاراقم
 تبدى خضيباً مثل دامي الصوارم

(1) ذكرنا ترجمة الرصافى فى صفحات سابقة من هذا المؤلف ،
 ونجد كثيراً من اشعاره فى نفح الطيب ، والاحاطة ، واعلام الاعلام ، ومن
 شعره ما قاله فى استقبال الامير ابى محمد عبد المؤمن بن علي عندما
 عبر الى جبل الفتح فى ذى القعدة سنة 555 هـ .

لو جئت نار الهدى من جانب الطور
 من كل زهراء لم ترفع ذوابتها
 ما زال يقصها التقوى بموقدها
 حتى اضاءت من الايمان عن لبس
 قبست ما شئت من علم ومن نور
 ليلا لسار ، ولم تثبت لمغرور
 صوام هاجرة قوام ديجـ—ور
 قد كان تحت رماد الكفر مكفور
 وهى طويلة وقد نشرت جميعها فى كتاب اعمال الاعلام صفحة 306 .

وتحسبه سنت عليه مفاضة
وتطامه في دكمة بعد زرقة
كما انفجر الفجر المثل على الدجى
وقال في وصف روض:

سقى الروض رده رأداً صحى
شتى محاسنه فمن زهر على
وكأنما حم الربيع لقطفه
غربت به شمس الظهيرة لا تى
حتى كساه الدوح من أفيائه
وكأنما لمع الظلام بمتنه
ومن قوله كذا في وصف نهر:

لأرهاب هبات الرياح النواسم
ظلال لأرواح عليه نواءم
ومن دونه في الأفق سحيم الغمام

وحماه طرباً يشاغى البلبلا
نهر يسيل كالجباب تسلسلا
واستل منه يذود عنه منصلا
أحراق صفحته أهباباً مشعلا
برداً تمزق بالأصائل هاهنا
قطع الدماء جمداً حين تخللا

لله نهر كالجباب ترقيشه ساهى الجباب
يصف السماء صفاءؤه فحصاد ليس يذى احتجاب
وكأنما هو رقة من خالص الورق المذاب
غازات في شطيه أبكار المنى عصر الشباب
والظل يبدو فوقه كالحال في خد الكمام

لا بل أدار عليه خـ ف الشمس منه كالنقاب
مثل المجرّد جـ ر فيـها ذيله جر السحاب

وله في الغزل (1) :

منصور الخدم ———— ورد	يكسوني السقم مجرد
شفاف الدر له جسد	بأبي ما أودع مجسده
في وجنته من نعمته	جمر بفؤادي موقده
ريم يرمى عن ~~أصكحاه~~	زرقا يصمى من يصمده
متداني الخطوة من ترف	أترى الاحجال تقمده
ولاه الحسن وأه ———— ره	وأناه السحر يؤبده

ومن غزله :

لم تدبر ما خلدت عيناك في خلدي	من الغرام ولا ما كابدت كبدي
أفديك من رائد رام الدنو فلم	يسطيه من فرق في القلب متقد
خاف العيون فوافاني على عجل	معطلا جيده الا من الجيد
عاطيته الكاس فاستحيت مدايتها	من ذلك الشنب الممسول والبرد

(1) صفحة 226 من الجزء الثاني من فوات الوفيات لمحمد بن شاعر الكتبي.

حتى اذا غازلت أجفانه سنة
أردت تو سيدة خدى وقلت له
فبات في حرم لا غدر يذعره
بدر ألم وبدر لافق ممتحق
تخير الليل فيه أين مطامه
ومن قوله كذلك في الغزل :
زارني خيفة الرقيب مريبا
رشا راش في سهام المنيايا
قال لي : ما ترى الرقيب مطاللا
واسقنيها بخمر عينيك صرفا
عاطني اكؤوس الرضاب دركا
ثم لما أن نام من بعد نعس
قال : لا بد أنت تدب اليه
قال : فابدأ بنا وثن عليه
فوئبنا على الغزال وئوبا
فهل ابصرت أو سمعت بهب

وصيرته يد الصهباء طوع يدي
فقال كفك عندي افضل الوسد
وبت ظمان لم أصدر ولم أرد
والجو محلوك الارجاء من جسدي
اما دري الليل ان البدر طوع يدي ؟

يتشكى القضيبي منه الكثيا
من جفون تصمي بهن القلوبا
قلت زرني تجد مكاني رحيا
واجعل الكاس منك تغرا شنيبا
وأدرها علي كروبا فكا وبدا
وتلقى الكرى سميعا مجيبا
قلت : أبغى رشا وأخذ ذيبا
قلت : كلا لقد رفعت قريبا
ودبنا الى الرقيب ديبيا
ذاك محبوبه وذاك الرقيب

ومما قاله فى مدح السلطان المستنصر :

جمعت للناس بين الرى والشعب فهم بأخصب مصطاف ومرتب
ولم تدع كرمها الا اتيت به تضيف مبتدعا منها لمبتدع
لما وليت خلعت الخير اجمعه عليهم فبدوا فى أجمل الخلع
لله أيامك استوفت محاسنها فلا فضيلة للاعياد والجمع
دامت مساعيك والاقدار تسعدها تولى المساجد انصافا من البيع
ومن نظمه قوله فى (1) المجنات:

بنفسى مثلجات الصدور لها سمتان من ناز وور
حوامل وهى ابكار عذارى تزف على الاكف مع البكور
كبرد الطبل حين تذاق طعاما وفى احشائها وهيج الحرور
لها حالان بين فم وكف اذا وافتك رائحة السفور
فتغرب كالاهلة فى لهة وتطلع فى يمين كالبذور
ومن شعره فى شكوى الزمان :

تحيف حـالتى حيف الزمان وصدق اليأس من كذب الامانى

(1) صفحة 266 من الجزء الثالث من ازهار الرياض - والمجنات هى انواع من الاطعمة اللبنية تعمل بالسكر، وتثلج بوضع الثلج عليها، وكانت من اطعمة الافدلس المشهورة .

وبرت في أليتها الليالي
أما قنعت وقد كلفت بهضمي
أحاول أن أقوم لما يواتي
وأطباق الثرى بالحر أحرى
فهل من آخذ بيدي أخيد
أياماً اشتكك به من أيامي
وما أبغى على تلقى دليلاً
وقال في المعنى نفسه :

يعيرني قومي بجفوة سلطاني
يرون خمولا عطلتى لتوقفى
وقالوا: خفون قلت: لابل رجاة
إذا عهدونى المنراة راكياً
وقال يخاطب نفسه :

الام في حل وفي ربط

بترويعي (1) فاني بالامان
وضيمى دون ابناء البيان
فتعمدنى الخطوب بلا تواني
إذا الفى الشراء من الهوان
بعين الله (2) شدة ما يعانى
عوار في يد الباوى عواني
كفاني أننى حى كفاني

ويشفيهم شكوى نبوة أوطاني
وتلك على محض النباهة برهاني
كفتنى القاء بكفى لاذعان
فصعب الاسى سهل وان هد اركانى

تخط جهلاً أيها خبط؟

(1) ازعاجى وافجاعى .

(2) اى ان ما يعانيه عليه دليل ومشاهد ومعائن من الله .

دع الوري، وارح اله الوري فانه ذو القبض والبسط
 ليس لـ ما يعطيه من مـانع ولا لما يمنع من معط
 وقال في الشوق الى ضريح النبي صلى الله عليه وسلم :
 لو عـن لى عون من المقـدار لهجرت المدار الكريمة دارى
 وحلت اطيب طينة من طيبة جارا لمن أوصى بحفظ الجار
 حيث استبان الحق الابدار لما استشار حفاظ الانصار
 يا زائر القبر قبر محمد بشرى لكم بالسبق فى الزوار
 أوضعتموا النجـاتكم فوضعتموا ما آدكم من فادح الاوزار
 فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذى حملتكم شوقا الى المختار
 أدوا السلام سلمتموا وبرده أرجو الاجارة من ورود النار
 وقال تكريما ومدحا وتقربا لمثال (1) نعل النبي صلى الله عليه وسلم :
 لمثال نعل المطفئ أصفى الهوى وأرى السوا خطيئة لن تغفرا
 واذا أضافحه وأمسح لاثما اركانه فمعززا وموقرا

(1) هو تجويف فى بعض الاحجار يزعم بعض الناس ان قدم النبي غاصت فيه فترخت هذا الاثر المجوف . ونجد فى بعض الكتب ، كما فى ازهار الرياض (الجزء الثالث) رسما لهذا التجويف . وقد نظم فيه الشعراء القصيد تقربا وتوددا وتحببا وتوسلا .

شاو المعجب الطيف يطرق في الكرى
لثم الطلول لاهلهم تذكر
تحت الظلام على الغرام توفرا
وأريق دمي وسطه مستبصرا؟
شغفي بنهلي خير من وطى الثرى

ان شاقني ذاك المشال فطالما
لى اسوة في العاشقين وقصدهم
وبكاؤهم تلك المعاهد ضاة
أفلا أدرغ فيه شيبى راشدا
ثقة باثرائى من الخيرات فى
وقال فى المعنى نفسه :

باعرازه الحسينى مثال
حكى وشهيدى لو يفوه قبال
وحسبى منه عصمة ومنال
فلا صح عزمى ان صحالى بال
تسح من الرحمى على سبيل
لقمة رأسى ان يعز مآل
وهل بعد تويل الجوار منال؟

مثال الى نعل المطهر بعترى
أقبله شوقا تماكنى لما
والى اشتراك فى التزام شراكه
ومعقد مما عقدت به الهوى
مرادى من تمرغ شيبى عليه ان
ومن وضعه فى حر وجهى ورفعه
فأحظى بحظى من جوار محمد

هذا بعض شعر ابن الأبار، أتينا به هنا كما عثرنا عليه ،
وليس كل شعره ، فان صاحبنا لم يترك لنا ديوان شعر مجموع .

وهو - كما قلنا - لم يتخذ الشعر مهنة يعيش منها (1) ، فلم تكن حياته الشعرية جزءا كبيرا من حياته الاجتماعية او الثقافية . ولكن هذا البعض على قلته جدير بالدراسة .

ان الموضوعات التي تناولها الشاعر في قصائده يمكن وصفها بأنها : في الاستغاثه ، والمدح - مدح الولاة او الاصدقاء - والرتاء ، والوصف ، والغزل ، والشكوى من الزمان وسوء الحظ ، والتوسل الدينى . فهو اذا قد تناول من أغراض الشعر المعروف المؤلف في عصره ، ولم يأت بجديد ، ولم يكن صاحب مذهب خلقى او شعرى فلسفى خاص به : لم يكن متشائما كأبى العلاء ، او معجبا بنفسه مفرورا كالمتمننى ، أو مفرما بالمجون والخمريات كأبى نواس (2) ، او صوفيا زاهدا كابن العربى ، او وصافا بارعا كابن هانىء ، او مفرقا فى الغزل كابن سهل . تلا لم يكن من

(1) كانت مهنة التكسب بالشعر شائعة فى الاندلس كما فى المشرق من ذلك ابن دراج القسطلى الذى كان يمدح الملوك والناس ، من يعرف ومن لا يعرف .

(2) وعبد الجليل بن وهبون الاندلسى فقد كان ماجنا طروبيا يميل الى اللهو والغلمان وتضمن شعره الكثير من ذلك

رجال الشعر الفنين ، وانما كان من عشافه ، ولذلك تناول منه ما عن له ، وما دعت الحاجة اليه ، وما أحس بالرغبة في قرضه . وهذا هو السر في أنه - على اقلاله - تناول من ابواب الشعر كل باب او غرض . وليس هذا مما يقلل من قيمة انتاجه الشعرى ، فهو اديبا اكثر منه شاعرا . وهو قد زاول الشعر من كثرة حفظه واطلاعه وابتلاؤه بأقوال الشعراء ، لانتيجة لمبقرية شعرية مبتكرة . لهذا لانجد فيما لدينا من شعره معانى جديدة ، فكل ما جاء به مألوف مطروق . وان القارىء لقصيدته الشهيرة : « أدرك بخيلك خيل الله أنداسا » لا يجد فيها فكرة مبتكرة او صورة بارعة . وكل ما فيها أنها تشير في نفس قارئها أسى وحسرة للذكريات التى ترتبط بها ، وللعاطفة الدينية التى توقظها الحوادث المؤلمة التى اصاب المسلمين فى تلك البلاد . فهى اذاً قصيدة وجدانية خاصة ، يهتز لها المسلم حزنا ، وتذرف لها عيناه حسرة . وهى سجل خالد لما اصاب المسلمين فى اواخر ايامهم بالاندلس . ونصيبها من الخلود شبيه بنصيب امثالها ، كتلك التى

نظمها صالح (1) بن شريف الرندى :

لكل شيء اذا ما تم تقمصان فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته ازمات
وهذه الدار لا تبقى على احد ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابعة (2) اذا نبت مشرفيات وخرصان
ويقتضى كل سيف (3) للفناء ولو كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
وهى قصيدة طويلة ملأى بالصور الوجدانية المخزنة .

ولم تكن قصيدة ابن الابرار فريدة فى بابها او معانيها .
فالمقرى يقول لنا فى نفع الطيب (4) : « ولم ينزل اهل الاندلس بعد
ظهور النصارى على كثير منها يستنهضون عزائم الملوكة والسوقة
لاخذ الثار ، بالنظم والنثار . فلم ينفعهم ذلك ، حتى اتسم الحرق ،

-
- (1) وقد ذكرها عدد من الكتب مثل : نفع الطيب صفحة 189 من
الجزء الثانى ، وازهار الرياض فى اخبار عياض صفحة 47 من الجزء الاول .
(2) السابعة : الدرع الكامل والمشرقيات السيوف المنسوبة الى المشارف
وهى قرى من ارض العرب . والخرصان جمع خرص وهو الرمح .
(3) أى حتى ولو كان سيف بن ذى يزن البطل المشهور وملك اليمن
وغمدان قصره .
(4) ص 588 من الجزء الثانى .

وأعضل الداء أهل المغرب والمشرق . فمن القصائد الموجهة في ذلك قول بعضهم .. لما أخذت بالنسبة - يخاطب صاحب افریقیة ابا زكرياء عبد الواحد بن ابی حفص :

نادتك انداس قلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها من عاطفاتك ما يقى حوباءها
واشدد بجلبك جرد خيلك ازرها تردد على اعقابها اوزاءها
وفي قصيدة ابن الابرار السينية يقول ابو سعيد في كتاب
«القدس المعلى» (1) : «وعارضه جمع من الشعراء» ما بين مخطئ
ومحروم . وأغرى الناس بحفظها اغراء بنى تغلب بقصيدة
عمرو بن كلثوم .

وقصيدة ابن الابرار .. هذه - مؤثرة محزنة لانها صادرة
من القلب ، وتخاطب القلوب والمواطف .
وكان ابن الابرار وفيا بزا ، بأصدقائه وأساتذته . وكان
يحمل لاسناده ابی الربيع بن سالم الكلاعى كل تقدير واعجاب ،

(1) صفحة 205 من الجزء الثانى من نفح الطيب ، الطبعة الاوربية
(طبعة ليدن)

ويدخر له كل حب . ولم يكن أبو الربيع رجلا علم ودين
 وتقوى فحسب ، بل كان رجلا وطنيا متحمسا ، وبطلا مجاهدا .
 خرج للدفاع عن وطنه ، ولم تقدمه شيخوخته اذ كان في سن السبعين ،
 فاستشهد مع غيره من المجاهدين في موقعة انيجة وكانت (1)
 الموقعة محزنة ومهدة بالزوال . وكانت الحال مشيرة دافعة الى
 انطلاق الاسنة بالرياء والعيون بالبكاء . فلا غرو ان يرثى ابن
 الابار استاذه ومن استشهدوا معه ، ويصف ما شاهد بعد الموقعة .
 وهو في وصفه ورثائه لم يبتكر معنى جديدا ، بل وصف ما
 رأى ، وعبر في بساطة من المعاني عما احس . ألا تسمعه يقول :
 ألما باشلاء الملا والمكارم تقد باطراف القنا والصوارم
 وعوجا عليها مأربيا ومغازة مصارع خست بالطلا والجماجم
 نعي وجوها في الجنان وجبهة مجاسد من نسج الظبا واللاهزم
 ومنها كذلك ما ذكرناه قبل :
 أضاعهم يوم الخميس حفاظهم وكرهم في المأزق المتلاحم
 والقصيدة طويلة وقد ذكرها جميعها لسان الدين ابن

(1) كانت في ذى الحجة سنة 634 هـ .

الخطيب في كتاب الاحاطة. وكذلك نشرها الاستاذ هـ. ماسي ،
في ترجمة ابي الربيع الكلاعي ، في مقدمة كتاب الاكتفاء في
سير النبي والثلاثة الخلفاء ، الذي نشره بالجزائر سنة 1931 م .
اما وصفه للنهر والروض فقد عارض في بعض وصفه النهر
الرصاصي . والمعارضة نوع من المحاكاة والصناعة التي يتخذ فيها
المعارض انتاج من سبقه نموذجا يعاكيه او يفوقه . والمعارض
حريص كل الحرص ان يغالب المعارض فيغلبه . فالوحي - او الحافز
- في هذه الحال امر خارجي ليس في صميم الموضوع المعالج .
وشبيه بهذا التلميذ في المدرسة يتفوق في مادة من مواد الدراسة
لا لانه يحبها او يفرح بها ، ولكن ليفوز بالجائزة . وهذا الحافز
. عندي . صناعي غير طبيعي . ومع هذا فتشبيه الماء في صفائه
بالفضة المذابة ، والنهر في التوائه بالتواء الارقم شئ . مألوف
في الادب العربي . وفي قوله :

كما انفجر الفجر المغل على الدجى ومن دونه في الافق سحيم الغمام
صورة ومعنى قريب مما قاله ابن خفاجة :
وفي مصطلح الآفاق جمر كواكب علاها من الفجر المطل رماد

ووصف ماء النهر بالصفاء ، وأنه كالمرآة ، يـكـس ما فوقه ويره ،
ليس جديدا في الشعر العربى . من ذلك قول بعضهم :

بنهر كـالسـجـنـجـل كـو تـرى تـعـبـس وـجـهـهـا فـيـه السـمـاء

وقد عارض هذا البيت ابو اسحاق ابن خفاجة فقال :

اذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الماء تحسده السماء

وقد يجد القارىء في قول المتنبي عندما كان يصف شعب بوان :

وألقى الشمس منها في ردائى دنائيرا تفر من البنات

صورة لتساقط قطع الشمس المضيئة على ثوبه كالـدناير ، وهى

صورة ابداع من تلك التى يعرضها ابن الابرار بقوله :

وكأنما لمع الظلام بمتنه قطع الدماء جددن حين تغللا

اما ان ابن الابرار قد نظم فى الغزل نظاما رقيقا مطربا فهذا

ليس غريبا او عجيبا ، بالرغم من اننى نفيت عنه ان يكون

.. اجنأ اولاهيا أو عابثا . فحقيقة الحال هى ان لابن الابرار - كما

لكل البشر - عاطفة جنسية تحس هذه العاطفة به فى المرأة من

جمال وجاذبية واغراء . وتضعف هذه العاطفة امام المرأة الجميلة

الجذابة المغرية . وتضعف هذه العاطفة وتلين فى فترات خاصة

من فترات الحياة، هي فترات المراهقة والشباب، والفترات التي
يمل فيها الانسان الجسد الدائم، فيقصد الى اللهو ترويحاً للنفس :
لئن كنت محتاجاً الى الجسد اننى الى اللهو في بعض الاحايين احوج
وابن الابار لا بد مرّ بهذه الفترات . فقد كان مراهما وشاباً ،
وقد مل احياناً حتماً حياة الجسد وبحث عن لحظات للترويح
والعبث الجنسي . وهو لا بد قد وجد من جميل النساء من
يوقظ شيطان شعره ، ومن يلهمه ، فكتب او نظم الشعر ،
شعر الغزل الرقيق الذي اوردناه . وهذه ظاهرة طبيعية تمرض
لكل انسان في حياته ويبدو اثرها في سلوكه وتصرفاته وتعبيره .
وام يكن ابن الابار ملاكاً فيمتنع عن مغازلة النساء او وصفهن
او الخلوة باحداهن او مراودتها . نعم حدث له شىء من هذا
والكنه ام يصير طبعاً له ، وسجية ملازمة ، وانما كان ما حدث أمراً
عارضاً له ظروفه وملابساته الطبيعية والاجتماعية . واهذا نعود
فنقول مرة أخرى : ان ابن الابار لم يكن باجناً او رجل لهو
وطرب ، ومجالس شراب وسمر ، بل كان رجل جد ووقار
وخير . ولا يطمئن في هذا ما ورد من شعره في النساء وعشيرتهن

ومسهن .

ووصفه الخد بالورد ولحظات العيون بالسهم ليس جديدا
في الادب العربي . فقد قال ابن سهل وهو من معاصري ابن الأبار :
فقلت : اشم من خديك وردا فقال : وما تضم الوجنتان
فقلت : اخاف صدغك ان يراني وما انا من احاظك في أمان
وقال جرير :

ان العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
وقال ابن عبد ربه :

ياسقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
واذا كان سلوك ابن الأبار الذي ابداه في اولى قصائده
الغزلية التي يقول فيها :

فبات في حرم لا غدر يذعره وبت ظمان ثم اصبر ولم اُرد
اذا كان سلوكه هذا يدعو الى الاعجاب بأخلاقه وضبطه نفسه ،
فان سلوكه في القصيدة الغزلية الثانية مخجل ، وجراته على
اعلان هذا السلوك اكثر اخجالا .

ومن السهل أن يقول قائل ان هذه القصيدة ليست لابن

الابار، ولا تتفق وخلقه ووقاره ودينه وتقواه . هذا أمر سهل
القول ولكنه ليس سهل الاتبات . ومن حفظ، حجة على من لم
يحفظ .

وليس ابن البار في شكوى الزمان مبتكرا ، فغيره قد
نكب مثله ، وأصيب في كرامته ، وتكاثر عليه الحساد والاعداء
وغيره شكا الزمان ، وتنكر الخلان ولا بد ان يكون ابن البار
نظم هذه الشكوى في تونس عند ما تغير عليه السلطان أبو زكريا
أو ابنه المستنصر . وشبهه بشكواه شكوى ابن حمديس الصقلي :
تدرعت صبرى جنة للنوائب فان لم تسالم يا زمان محارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم ورضت شموسا لا يذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة اذا لم أنقب في بلاد الاغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة وانفقت كثر العمر في غير واجب
الى أن قال :

ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب
وشعر ابن البار في المديح والشوق الى زيارة الرسول لا يقارن
بما كتب في الموضوع من مدائح وتشوقات . ولكنه مع ذلك

شعر منبعث عن اخلاص وحب صميم ، شعر كتب في وقت
شعر فيه ابن الابرار بالحاجة الى من يعتمد عليه ، ومن يلجأ اليه
ليحميه ويضمن له السلامة ، شعر كنبه في كهولته أو شيخوخته
بحرارة وحماس . وهو يقول :

أفلا أمرغ فيه شيبى راشدا وأريق دمي وسطه مستبصرا؟
أما أسلوب ابن الابرار الشاعر فهو قريب من أسلوب ابن
الابرار النائر . انه يتخير من الكلمات ما يروقه لحسن جرسه أو
مناسبة سجعته ، أو لما فيه من محسنات لفظية أو معنوية . وكأنه
نقل أسلوب النثر الى الشعر ، استمع اليه وهو يقول :

في كل شارقة المام باثقة يعود مائتها عند العدا عرسا
وكل غاربة احجال شائبة تشي الامان حذارا والسرور أسي

مدائن حلها الاشراك مبيتسا جذلان وارتحل الايمان منبتسا
وصيرتها العوادي المابثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

فهو قد أتى في هذه الابيات بسجعات حتى في البيت
الواحد ، كما في البيتين الاول والثاني ، وبطباق في قوله : «مأتم»

«وعرس». وفي قوله «جدلان» و«مبتس» و«يستوحش» «أنسى»
وهو يستعمل الجنس الثام أو الناقص مثل ما كان يستعمله
في النشر، من ذلك قوله :

كانت حدائق الاحداق مونة فصوح النصر من ادواحها دعسا
وحال ما حوالها من منازل عجب يستجلب الركب أو يستركب الجلسا
وقوله : ريم يرمى عن اكحله زرقيا يرمى من يحمده
وقوله :

أياما اشتكيه من أيام عوار في يد البوى عوانى
وإذا كنا لاحظنا في أسلوبه النثرى تعمقا في اختيار اللفاظ
المهجورة ، وقليلة الاستعمال ، فمن الحق ان نقول ان أسلوبه في
الشعر أقل اتقالا بهذه الكلمات المهجورة . ومن السهل على
القارئ العادى ان يتتبع شعره ويفهمه أكثر مما يتتبع بعض
قطعه النثرية لا سيما رسائله .

والخلاصة أنه في أسلوبه الشعرى عمد - كما عمد أمثاله
من الشعراء الكتاب - الى استعمال كثير من المحسنات اللفظية .
واعمل لاسلوب الكتابة اثرأ في اسلوب الشعر .